سرّة الكون سرّة الحياة:

قراءة في رواية «سرة الكون» للروائي الليبي محمد الأصفر

سالم العوكلي *

(لو كانت السماء دروباً لتاهت العصافير) .. في كون الأصفر السردي الدروب متاهة، والاستقامة وهم، فكل مستقيم هو في الواقع معوج، روايته لا تستجدي مقولات، مثل البنية، والخط الدرامي والسياق .. وغيرها، إنها متاهة حقيقية، لكنك لا تملك إلا أن تستمتع بالضياع فيها ومعها، روايته لا يكتبها بأصابعه، أو بعقله، أو بوعيه، إنما يكتبها بأقدامه التي أينما حطت أو تحط يشتعل السرد، لا شيء يفعله سوى أنه يتسلى بتحريف (نسبة إلى الحرف) حياته .. وبتحريف (نسبة إلى الانحراف) مسار كتابته كلما أحس أنها تماثلت إلى الحكي الحكيم .. الحياة المكتوبة شيطان ليس أخرسَ، وعلى جميع من دخلوا حياة الأصفر أن يدفعوا الثمن، حيث لا مفر من خضوعهم لطقوس التعري التي يمارسها راقصاً .. إنه بظفر حاد يكتب على البخار المتكثف على زجاج الحياة ليتمكن من الرؤية والرؤيا، ويلهث دون هوادة في صحراء لا دروب لها ... آثار أقدامه على الورق تشي بعطش قديم إلى البوح، عطش لأن يحكي ويشعر ويشتم ويقبّل ويبصق في وجه أي أحد، لا شيء بمعزل عن هذه اللعبة الأثيرة، ولا مقعد حجرياً لا يمكن أن تدفئه مؤخرات الكلام المباح وغير المباح.. في هذه الرواية كما في الصحراء يمكنك أن تعرف مكانك بشم التراب الذي تطأ عليه، أو بلصق أذنك على الرمل القائظ لتسمع نبض قافلة بعيدة .. يمكنك أن تنظر فوق، إلى السماء لتعرف أين تحط أقدامك وأين تتجه.. يمكنك أيضاً (أن ترفع إصبعك الوسطى إلى السماء) ليكف نزيفك على الأرض، ولتعرف أنه ليس بمقدورك أن تعرف إلا حين تتمرغ بوحل المكان ومجازه، ولا يمكنك لكي تعيش وتضحك إلا أن تحب كل شيء فيه، الحشرات، الشعراء، مستنقعات المجاري، العاهرات، الأبطال، أذان الصلاة، الدراويش، وحتى (الحجر الأصم) .. ليس بمقدورك أن تعرف هذه البقعة من العالم إلا بمزيج الحب والكراهية، أن تحبها كلها .. من باتوس إلى مورينا، إلى اليهود الذين أجبروا على الرحيل منها، أو بمعنى آخر وكما يقول السارد: (هكذا هي الحياة علينا أن نكرهها ونحب هذا الكره لها) حينما نكره نرى بوضوح وحينما نحب هذا الكره نكتب بشغف، لنكتشف في النهاية أن كره الأصفر ما هو إلا شيفرة لحب مختلف.

بدأ الأصفر روايته من قورينا الغائبة تحت حشائش النسيان والحاضرة في وجداننا بحب مشوب بأسئلة الهوية .. قورينا في ليبيا لكنها ليست ليبية، نفتخر بها ونخاف منها، لذلك تركنا الحشائش تتراكم فوق أطلالها، ورق التوت الذي نستر به عورتنا التاريخية، أو إهمالنا للذاكرة التي لا تخلو من الريبة، من هنا بدأ الرواية لكنه كان لابد أن يذهب إلى طرابلس ليبحث عن السلفيوم وليكتشف ليبيا، كان يفر من ميثولوجيا الكتب ليشيدّ أساطيره الخاصة في حاضرة هذا الكيان، وكان لا بد أن تقتحم مورينا هذه الرواية لتصبح قدرها، وليحفر في مناجم كحلها بحثاً عن مخلفات ليبيا القديمة الراهنة، ليبيا التي سيعشقها حتى الجنون، ويعطيها كل شيء حار في داخله، والتي بدورها ستبخل عليه حتى باسمها الذي عليه أن يسحبه من الرواية، كان لابد أن يخترع أسطورة مهجة لتستمر الرواية.. شخصية يستدعيها من نطاف الأصلاب، من الحلم العصي، من ركام الكذب الذي يردم حياتنا اليومية المقنّعة، لنحاكم الجميع، ولترافع عن الخطيئة المرعبة التي مازالت تلاحقنا .. مهجة هي المسيح الذي (نطح البكارة برأسه)، وأصبح في وجدان العالم معجزة .. بين الخطيئة والنبوة شعرة، تحاول مهجة أن تلفها على ظفر سبابتها وتشير بها إلى السماء المخدوشة .. بين الخطيئة والمعجزة عَقْد أخلاقي هو الذي دشن الإنسان فوق الأرض في أكثر لحظاته صدقاً وتمرداً، مهجة لم تتكلم في المهد لكنها تكلمت وهي مشطورة بين الصلب والمبيض، مهجة هي عبدالسلام الأسمر الذي اختار أن يغني من منفاه المعتم، معجزة الأصفر الذي يحاول بها أن يثبت نبوته المارقة في أرض يتآكلها الضلال .. تتسع لكل شيء، للقمامة ومحطات النفط والمقاصل والسجون والبوليس، وتضيق عن حالة حب تكتب نفسها، أو تنكتب كل لحظة في شوارع طرابلس وأزقتها ومقاهيها .. كيف يمكنك أن تحلم في أرض، فيها اسم الأنثى عورة، والمزهرية قرب السرير تهشمها الأحذية التي تدخل دون استئذان ؟ أسئلة الأصفر الضمنية التي لا يبحث عنها، وليس مأخوذاً بأية إجابة لها .. يهذي لأن أقدامه تهذي .. يسير مثلما يسير النائم على حافة الجسر .. يسقط بمجرد أن يستيقظ، والأشياء التي يمر عليها تتأنسن بنزواتنا، جذوع الأشجار والجدران والمراحيض .. لا تتأنسن وتدفأ إلا بالبذاءات التي يخطها العابرون، وما وعدنا به في بداية وأثناء السرد لم يأت أبداً، لأن مورينا العصية لم تخرج منه.. هذا المس الذي لم تنفع معه التعاويذ ولا الضرب، هو في الحقيقة ليبيا المليئة كهوفها بالوحوش والغيلان والجنون، البحث عن السلفيوم، وحلول روح باتوس في الكاتب الذي سيؤسس ليبياه هو، سيملؤها بالأساطير والمذابح والمعابد، الرواية بمجملها نبتة سلفيوم تنمو بداخله .. (رواية تائهة كالكرة الأرضية لأن لا أحد يعرف شيئاً، حتى الكاتب نفسه عن مصيرها) إنها لا تتوخى سوى المتعة كشرط فني وحيد لها (فمن رحم المتعة يولد الأحرار ويتلاشى الدمار) هو يحب أن تتشكل في الظلام حيث الأحلام اللذيذة والهترسة التي لا يحكمها منطق ..الظلام الذي يضيء نورنا الخادع .. من ظلام الرحم يستنطق مهجة .. نبتة السلفيوم الأخرى التي يبحث عنها في ارتعاشة حلمية مؤجلة لزواج أزلي، يقع في التاريخ واللحظة، في الواقعة والأسطورة، في النور وفي العتمة، في أحلام الظلام اللذيذة وكوابيس النور التي تحيكها المدينة بعناية.

هذه الرواية تستفزك من جملتها الأولى .. تتشاجر معها وتلعن ديكها فتلعن ديكك .. تُضحكك وتبصق في وجهك، توشوش في أذنك نكتة بذيئة ثم تصفعك وأنت تضحك .. يدخلها كاتبها وهو لا يعرف شيئاً عنها، حيث الكتابة وسيلة للمعرفة وليس العكس .. يدخلها القارئ متوجساً أن يجد اسمه فيها، وخائفاً أن يتيه فيها إذ يتيه بها، القارئ الذي يدعي المعرفة المتعالية عن نص يتشكل بين يديه سيتعب كثيراً ويكابد هذا التداعي الذي يهدد نرجسيته، وسيقابل كثيراً من الشتائم الموجهة إليه مسبقاً، بإمكان أي قارئ أن يكون أحد شخصيات الرواية حسب موقفه منها .. رواية حدسية لا تحكمها رقابة تقليدية أو محدثة، تحتاج لأجل ذلك إلى مساحة شاسعة من التسامح في فعل القراءة ولكثير من تجاوز الذائقة المألوفة، كاتبها كما يقال (الّي في قلبه على لسانه) أو بالأحرى الذي في قلبه على رأس قلمه.. يكتب ما يفكر فيه ولا يفكر في ما يكتب .. الرجل هو روايته والرواية هي الرجل، لا يمكن أن تفصل بين الأصفر وكتابته .. نصه مستنسخ عنه، يمشي كمشيته مترنحاً.. دائماً يتصبب بالعرق .. نص ثقيل السمع يحكي ولا يسمع .. سخي، دائم الترحال ومحير .. النص فاضح بكشافه المسلط على حياتنا السرية وشوارعنا الخلفية وذواتنا المهمشة، مسلط بقسوة على عتمة هذا المكان التي فيها نمارس كل متعاتنا المحظورة، حيث الحياة تدبر نفسها في الظلام والزوايا المهجورة لتلقي بنا مع شروق الشمس في كوابيس النهار .. فاضح إذ الفضيحة وجه آخر للمعرفة، من نسيج الحياة ومرادف للحرية، وللذات المتعدية بتاريخها كله على اتفاق الجماعة المؤدلج .. الرواية كما يؤكد كونديرا شرطها الأخلاقي الوحيد هو المعرفة ويكفيها هنا أنها قالت ما لا يقال بغير الرواية، أو كما يقول الأصفر ضمنها: السراب دليلها وكما قال في البداية: لو كانت السماء دروباً لتاهت العصافير ... فتنحوا أيها الأساتذة و دعونا نسمع العصفور.

* شاعر وناقد ليبي

* مؤسسة الإنتشار العربي
* رواية سرّة الكون
* الكاتب محمد الأصفر
سنة النشر: 2006
السعر: 8
القياس: 17×24
عدد الصفحات: 379
الغلاف: عادي

تداعيات

السلطة لا وطن لها!

خليل النعيمي *

ماذا فعل الكلاب؟

السؤال ليس موجها للغرب، لا لأوروبا، ولا لامريكا. لان تاريخ الغرب العنفي معروف، وموثق. فمنذ عام 1492، عام سقوط الاندلس، او عام خروج العرب من التاريخ الحديث، والغرب يقوم، بالمعنى الحرفي للكلمة، بتدمير العالم، ونهب خيراته، واستعباد شعوبه، واجباره على الخضوع علنا، او بشكل مستتر، كما يحصل حاليا، في كثير من المناطق، وبخاصة في ما كان يسمى «العالم العربي»، قديما، والذي لم يبق منه، اليوم، الا سيئاته!

وهو ليس موجها الى «ثكنة الشرق الاوسط» اسرائيل، الدولة التي قامت تكفيرا عن عقدة الذنب الغربية بعد ذبحهم لليهود الذين لم يأمنوا، طوال تاريخهم، الا في الديار العربية.

الغرب هو الذي اخترع محاكم التفتيش، وهو الذي افرز النازية، والفاشية، والغولاغ، وهو الذي يقوم اليوم عبر «همجية ثكنته المتحضرة»، اسرائيل، بتفتيت الكيان الانساني في فلسطين وفي لبنان.

السؤال ليس موجها، كذلك، الى كثير من الانظمة العربية ولا الى سلطاتها التي تشير الاحداث الدراماتيكية التي يعيشها الاهالي في لبنان وفي فلسطين، الى افتراض وجود هدف مشترك بينها وبين الصهاينة، من اجل ازاحة حزب الله وحماس، عن الفضاء السياسي العربي خشية ان يحصل «الاسوأ» والقضاء، نهائيا، ولمرة واحدة، على كل «انشقاق» لا يمتثل لارادة السلطة العربية، ولمقتضيات بقائها «الازلي»، حتى ولو كان حركة مقاومة! وبالخصوص عندما يكون كذلك.

السؤال ليس موجها، ايضا، «لصهاينة العرب» المنتشرين، هذه الايام، على صفحات الجرائد الالكترونية، وفي كثير من الصحف الورقية، فهم، بطبيعة الحال، «ملتبسون» وليكن «بحسن نية» ومن السهل اعتمادهم ان لم يكن تبنيهم لصيغ جوفاء او لمفهومات مجردة لا زالت على الاقل بعيدة عن التحقق والتطبيق مع ان «آثارها التدميرية» على الانسان العربي فورية وكوارثها لا تحصى.

السؤال موجه الي واليكم والى «من تعرفون»، الى الكلاب التي لا تنبح على الغرباء وانما تنهش اهلها. الى اولئك الذين شردوا الالوف من مواطنيهم وسهلوا هجرة الادمغة العربية حتى صارت اوروبا وامريكا «مخزنا» للعلماء والدارسين العرب في شتى الحقول بعد ان صرفت اوطانهم الملايين من اجل بلوغهم أعلى الدرجات. هم الذين فتتوا الاقليات التاريخية ومارسوا العنف المحلي بلا حدود والذين صاروا اليوم امام المجازر الانسانية الممارسة ضد اهلهم يتحلون بفضيلة الصمت والخنوع. صمت وخنوع اصابت عدواه حتى الكائنات العربية التي كانت تتفجر حماسة وعاطفة عند سماع اغنية.

لكن السؤال لن يطرح لان السؤال في العالم الذي كان يسمى عربيا مصادر اصلا. لان «اهل السؤال» القادرين على الاجابة عنه في تاريخ ونحن في تاريخ ومع ذلك لا مفر من الكلام والحرب التدميرية قائمة.

ما يثير العجب ليس صمت السلطات العربية عن هذا التدمير المنهجي للبنان ولفلسطين وانما الخرس الذي اصاب الناس من امثالي. لا! لا يمكن فهم هذا الصمت العربي المعمم ولا تبريره لا بالقمع ولا بالخوف ولكن بالبلادة الانسانية التي استقرت في النفوس بفعل عملية «تفريغ الكائن» من جوهره. تلك العملية الخبيثة التي مارستها «السلطة العربية الواحدة» على رعيتها منذ عقود والتي باركتها انظمة الغرب اللئيمة والعليمة بخفايانا لكي تعزل السلطة العربية عن دعائمها المحلية ولكي تفترسها او حتى ان تهددها بالافتراس متى شاءت.

نتساءل: لماذا كل هذا التدمير المنهجي الحاقد الذي تمارسه «ضحية نازية الغرب» على الشرق العربي المسالم بعد ان نهبت جزءا منه؟ ألأنها تعرف بالتأكيد ان السلام هو الذي سيتكفل بإنهائها كدولة مبنية على الدين والعنصر، وليس الحرب؟ نتساءل ايضا: لماذا كل هذا الصمت العربي الباذخ ازاء هذا الاجرام التاريخي لاسرائيل؟

لنتذكر ان كل حركات المقاومة في التاريخ كان لها اصول ومراجع وتحالفات وهي تخطئ وتصيب وحركة الجنوب اللبناني لا تشذ عن هذه القاعدة. وهذا لا يجب ان يحرمها من تأييدنا لها ولا من وقوفنا معها. انها «حقنة» التذكير للوعي العربي الذي بدأ يستسلم للتخاذل والنسيان. الوعي الحائر بين التقدم والنكوص.

لنتذكر! ان ممارسة العنف التدميري على بلد لا يفنيه بقدر ما يفنيه تخاذل اهله وتسليمهم مصيره الى من لا يستحقه، وتلك كانت حال الانسانية منذ ايام الاسكندر المقدوني الذي احرق الشرق والغرب واخيرا مات وظلت البلاد لأهلها.

وهو ما يضع مسؤولية حماية البلاد كلها على الاهالي لا على السلطات.

فالسلطة لا وطن لها.

* روائي من سورية
يقيم في باريس

احدى لقطات فيلم «عمارة يعقوبيان»

عدد جديد من شهرية الهلال:

ملفات عن فيلم عمارة يعقوبيان وصلاح عبدالصبور ويوسف إدريس وتوسع في باب الإبداعات الجديدة

القاهرة ـ «القدس العربي»:

صدر العدد الجديد من شهرية مجلد الهلال حاملا عنوانا رئيسيا هو «يعقوبيان الرواية والفيلم».

وجاءت افتتاحية العدد لرئيس التحرير مجدي الدقاق متضمنة حوارا مع الشاعر اليمني الكبير عبدالعزيز المقالح، وكان من الغريب أن تكون الافتتاحية حوارا صحافيا، إذ مكانه الطبيعي هو متن المجلة لكن يبدو أن رؤساء التحرير الحكوميين لدينا ليس بإمكانهم نيل شرف التواضع والوقوف الى جوار محرريهم، وليس غريبا ان نجد بعض الصحف الحكومية اليومية وقد احتلت مقالة رئيس التحرير – التي لا تقرأ أصلا – صفحتها الأولى محلاة بصورة كاتبها. أما المادة الأولى بالعدد فجاءت عبارة عن حوار تحت عنوان «بورسعيد تحتفل 05 عاما علي النصر، أجرى الحوار كل من علي حامد وسهام وهدان، على صفحتين من القطع وضيف الحوار هو محافظ بورسعيد، وهو تقليد جديد على الهلال أن يكون ضيوفها من السياسيين التكنوقراط الذين لا يتقاطعون بأي شكل مع المجلة، فضلا عن أن انتصار بورسعيد والاحتفال به يستحق ملفا واسعا يكتب فيه متخصصون في الشئون العسكرية والسياسية.

أما ملف العدد فجاء تحت عنوان «يعقوبيان العمارة والفيلم» وكتب مجدي الدقاق مقدمة الملف مشيرا الى ان حملة الهجوم التي تعرض لها الفيلم يؤكد بؤس ثقافتنا وزيف مواقفنا، وقال: قد يختلف الكثيرون مع توجهات ورؤية علاء الأسواني كاتب الرواية، وأنا منهم إلا أنني أؤيد حقه في أن يكون له رأي ورؤية ويشير الدقاق الى ان موقفه من الفيلم لم يختلف عن موقفه من الرواية، تضمن الملف مقالات لرأفت الميهي المخرج المعروف، وكتب الأردني صبحي قمحاوي تحت عنوان «الرواية وعلاء الأسواني» وكتب اشرف عمار تحت عنوان «نظرة شاملة على العمارة»، وكتب أسامة كمال تحت عنوان «الحقائق المؤلمة» وتضمن العدد ايضا مقالا للشاعر حلمي سالم تحت عنوان «عن التماثيل والبهائية ودافنشي ـ صراع المنح والمنح» ايضا تضمن العدد ملفا عن صلاح عبدالصبور ويوسف إدريس فكتب أحمد عبدالمعطي حجازي تحت عنوان «مصر صلاح، ومصيرنا!» وكتب محمد إبراهيم أبو سنة «أشجان الذكرى وديمومة الحضور»، وكتب ماهر شفيق فريد تحت عنوان «يوسف ادريس في أعين النقاد الأجانب»، وكتب مصطفى بيومي تحت عنوان «الدين في عالم يوسف ادريس» وواصل الدكتور أنور عبدالملك الجزء الثالث من مقال «البحث عن مصر، زلزال الطبقة الوسطى»، اما القراءة التشكيلية فقدمها الفنان محمود الهندي عن بورتريه نجيب محفوظ لسهام وهدان، وكتب الدكتور سعيد اسماعيل علي تحت عنوان «ناشر فلسفة الشرق في بلاد الغرب» هذا بالاضافة الى بعض المقالات الأخرى.

يقع العدد الجديد من شهرية مجلة الهلال في 226 صفحة من القطع الصغير وتصدر عن مؤسسة دار الهلال.

يان أجدريت

قـــص

محمد الشحري *

ما إن يذكر مشروع تخفيض الإبل إلا ويتفقد (يان أجدريت) إبله واحدة واحدة،وكلما رأى أبناءه مجتمعين يتشاورون فيما بينهم وجه إليهم أذنيه لاستقبال ما يدور هناك من حديث،وأحيانا تلتقط أذناه كلمة ويفسرها حسبما يفكر،وينازعهم الحديث ليتضح أنه كان مخطئا في التفسير،فالسمع يخونه أحيانا،لكنه يعلم أن أبناءه يبيتون النية للتخلص من أعداد الإبل التي أرهقت جيوبهم بالإسراف وأهلكهم التبذير عليها ولا مردود منها سوى حليب بطعم زيت السمك،يضاف إلى الإسراف ،الرعي في فصلي الخريف××× والربيع، حيث ينتظر غيرهم تلك المواسم بشغف كبير لا يوصف، فهما وقتا راحة وتنزه ورحلات ،ولكن تلك الفصول تضيف إلى أبناء (يان أجدريت) أعباء لا تطاق، وليس الرعي وحده من يقض مضجع أبناء (يان...) بل موسم صيد السردين (عيد العَلا) الذي يصادف شهري ايار (مايو) وحزيران (يونيو) من كل عام، ففيه تجنح أعداد كبيرة من أسماك السردين إلى شواطئ بحر العرب، ويتم اصطيادها بالطرق التقليدية ،أبناء (يان...) يحملون السردين التي تحرق ظهورهم بحرارتها، من البحر إلى الشاطئ لتجفف، ثم تقلب يوم اصطيادها ثم تقلب لتجف، ثم تعبأ بعد ذلك بيومين آخرين في أكياس من الخيش،وتقدم للحيوانات أو تخزن لاستهلاكها في وقت آخر، وقلّما تستخدم سمادا بسبب حرارتها العالية.

وضع أبناء (يان أجدريت) أنفسهم في أمر الواقع ،أكبرهم يقول:إما أن نكون نحن الذين تسخرنا حيواناتنا لخدمتها أو تكون الحيوانات هي المسخّرة لخدمتنا، ويزيد سخطهم على الإبل حديث الآخرين عن المهرجانات والسهرات الغنائية ،والنوم نهارا والسهر ليلا، يردد الأخ الأكبر حديثه على أخوته: يجب أن نضع حدا لهذه المأساة، ثلاثة فصول والشقاء والعذاب يعزفاننا لحنا على قيثارة الإبل، وأولادنا تنتظرهم أنغامٌ أخرى، ومشروع تخفيض الإبل فاتح أبوابه على مصراعيه لكل المربيين، سأبيع ولن أنتظر حتى تغلق الأبواب ثم أجثو على ركبتي لأطالب ببيع ناقة، سأبيع وأكفي أبنائي التعب، نريد أن نستقر عوض حياة الهجرة والترحال التي لا تنتهي ،سنبني مساكن وننعم بالماء والكهرباء كغيرنا من البشر ، يرد الأخ الأصغر: أبناؤنا متفوقون دراسيا رغم انشغالهم بالرعي، وقد لا يوافق أبونا،يقاطعه الأخ الأكبر قائلا: يوافق أبونا أو لا يوافق ليس شأنه ،وأنتما تعرفان أن أبي لم يتبق له من الإبل سوى (سمهور) وابنها ونوقه الأخرى جرفها سيل العام الماضي، والبقية إبلنا ملّكها لنا بمحض إرادته ويحق لنا التصرف بها كيفما نشاء.

يدخل الأخ الأوسط في معمعة النقاش ويقول: حتما أبونا سينفعل إذا بعنا الإبل خاصة (سمهور) التي تذكره بالوالدة ـ رحمها الله ـ.

يصر الأخ الأكبر على فرض رأيه على الجميع ويقول: تعرفان طيبة أبي وحبه لنا ، وسنجد له ما ينسيه (سمهور) والوالدة، هذه الأيام يتحدث أصدقاؤه عن زواج صاحبه (بر طفيلون) بفتاة دون العشرين، فالزواج سيشغله عن (سمهور) وذكرياته.

جاء الابن الأكبر إلى أبيه فوجده يستمع لشريط (دبرارت) فسأله قائلا: أبي هل تظن أن (بر طفيلون) ما زالت لديه القدرة على الإيفاء بواجباته البدنية لزوجته،يضحك الأب بخبث ويقول: يا ولد أنت لا تعرف (بر طفيلون) تزوج عند الشيوخ حين كنا نعمل في الخليج،وكانت زوجته تدفع له راتبا شهريا مقابل مضاجعتها،و حين عزم على الرجوع هرّبناه في صندوق،وأخبرنا من تركنا بعدنا، بان زوجته أصابها الجنون بعده، حين عجزت عن إيجاد ما لديه عند بقية الرجال، (بر طفيلون) سبعٌ تخلى عن مصاهرة الشيوخ لأجل نوقه،فضلّ الرعي على السجاد الأحمر.

قال الابن: هل تريدنا أن نبحث لك عن عروس مثل صاحبك؟

أشرق وجه الأب المسكون بالتجاعيد التي حفرها الزمن في وجهه، فهم الابن على أنها بوادر الموافقة فقال: إذا سنبيع بعض الإبل وتزوج بأثمانها.

أفضل العيش هكذا دون أنيس على أن أختار حلوك التي تشعرني بالغثيان،هكذا رد (بر طفيلون) فبانت التجاعيد كتربة حل بها الجفاف من جديد، امتنع الإبن عن الحديث مع أبيه الذي سينتهي الحوار معه لطرق مسدودة.

قبل أن يحين دور (يان أجدريت) وأبنائه لبيع ما يشاؤون من الإبل للشركة،أوهم الأبناء أباهم بنقل الإبل إلى مراع سمعوا بنزول المطر ونمو العشب فيها،فلم يوافق (يان...) على ذهاب (سمهور) وابنها فقال له أبناؤه: يا أبانا لم لا تأمنا على (سمهور) وابنها ؟أرسلها معنا تسرح وترعى، قال (يان...) يا أبناء (شخارنوت) لا آمنكم على نوقي وأخاف أن تتعثر (سمهور) أو تُكسر قدمها وأنتم عنها لاهون، قالوا: أتتعرض للأذى ونحن معها !.. رق قلب الأب الحنون، وفك عقال (سمهور)، وهو يحث أبناءه على التمسك بالإبل حتى نهاية سلالتهم ،والأبناء يظهرون الانصياع والتفاني، ويبطنون كرها لا يطاق للإبل، التي لم تبتعد مسافة بعيدة، حتى أوثقت وشُحنت في ناقلات إلى مقر الشركة التي لم ترفض منها ناقة واحدة، رغم إصابة البعض منها بجرب وهزال لا يخفى.

تخلص الأبناء من الإبل دفعة واحدة كأنهم يتطهرون من إثم ارتكبه جدهم الخامس الذي اشتراها. وقع خبر بيع الإبل على الأب كالصاعقة، فلم يكلم أبناءه ثلاثا، لكن الأبناء يعرفون كيف يدندنون على أوتار أبيهم الحسّاسة، فطلبوا من (بر طفيلون) أن يتدخل ويحدثه بأن زوجته لديها أخت أصغر منها وترغب في الزواج، ونفذ (بر طفيلون) مهمته بنجاح.

فرح (يان أجدريت) حين سمع بأن الشركة ستسدد قيمة الإبل المشتراة بعد انقضاء الخريف،فأحيانا يذهب عند صديقه (بر...) يسامره ويشرب عنده الحليب ويختلس النظر إلى زوجته الشابة، وأحيانا يستمع (للدبرارت)، أولاده أصيبوا بالسمنة بسبب مكوثهم المطوّل في الغرف، وزوجاتهم اللائي كنّ مضرب المثل في الرشاقة والنحافة، أصبحن كأبقار استرالية صالحة للتصدير، وأبناؤهم تأخروا دراسيا، والسردين ظل يجنح للشواطئ، ولم يتوقف الصيادون عن صيده، والفصول الأربعة توالت دون حزن على (يان أجدريت) وأبنائه، وبعد انقضاء الخريف ستشرق الشمس على رعاة إبل تخالطوا في (مبرك) ما،يتدثرون (بالخرق) النيلية وقد عصبوا رؤوسهم (بالمحافيف) ويتدفئون ببقايا حطب وجمرات من مخلفات سمرهم البارحة على (المشعير)، وعلى الجمر إبريق شاي يغلي، وأوانٍ ممتلئة حليبا مكسوا برغوة كقمم ثلجية بنكهة الأعشاب، ونسيم صباحي بارد يحرك أغصان أشجار (السغوت)، التي يبات تحتها الرعاة المتنقلون في الربيع، والإبل تجتر حبا لأصحابها، وكبار السن يقرفصون حول الموقد لرشف الشاي والحليب، يتناقشون في البحث عن مرعى لا يزال عامرا بالأعشاب والشجيرات، قبل أن يسبقهم إليه رعاة آخرون. ينتظر الرعاة انقشاع الندى عن ظهور الإبل ليطلقوا صيحاتهم «أأهيي يوهّ يوهّ» يتبعه موّال رعوي آخر «وواه ...وواه...وواه» إيذانا بتسريحها من (المبرك) إلى المراعي.

الشركة ماطلت البائعين قليلا، وادعت الخسارة حينا، وأحيانا أخرى تعرض عليهم المقايضة بأعلاف اصطناعية، ثم دفعت لهم أجهزة تلفزية، وصحونا لاقطة ليتفرجوا على العالم، وأجهزة تكييف وثلاجات وهواتف نقالة، فلم يجد الأبناء حلا إلا اقتناء هذه الأجهزة، التي تتعطل باستمرار، مما يتطلب تصليحها من قبل الشركة التي تكلفهم أيضا أجورا مضاعفة، وثمن (سمهور) لم يتجاوز قيمة جهاز تلفاز وتوابعه ،وجهاز تكييف ،وهكذا تبخرت آمال (يان اجدريت) سدى، وذهبت حساباته أدراج الرياح، فلا صاحبة ولا أولاد صالحين ولا حليب، ولا حتى ذكرى لزوجة وفية.

* قاص من عمان

* يان اجدريت تعني نصيب الأرض باللغة الشحرية، وهي من أقدم وأعرق اللغات السامية (العربية) القديمة،وهذه اللغة توجد في ظفار (جنوب سلطنة عمان) ولا تزال متداولة هناك، ولكنها لغة غير مكتوبة لذلك تتعرض للاندثار، فمن اللغة العربية تنطق اللغة الشحرية خمسة وعشرين حرفا من حروف اللغة العربية ، ولكن هناك ثلاثة حروف هي (ص، ض، ق) تنطقها اللغة الشحرية نطقا مختلفا عن النطق العربي، وهناك خمسة حروف أخرى خاصة باللسان الشحري مضافة إلى الحروف العربية الثلاثة لتصبح عدد الحروف المنطوقة بنطق شحري ثمانية حروف، كما أن هناك حرفين آخرين يمثلان صوتين مميزين هما (هـ الخفيف وغ الغُنّة الأنفية).

** كاتب من سلطنة عُمان يقيم في تونس

* * * الفصول في ظفار تختلف عن بقية الفصول في الجزيرة العربية، فالخريف يتبعه الربيع، والشتاء يتبعه الصيف،وتتأثر بالمناخ الموسمي القادم من المحيط الهندي، لذلك تصب الأمطار خلال الصيف في ظفار ويسمى (موسم الخريف).

إحالة بالكلمات الواردة باللغة الشحرية:

سمهور: اسم ناقة

بر طفيلون: بن طفيلون، وطفيلون تصغير لإسم طفول (اسم بنت).

الدبرارت والمشعير: فنون شعبية في ظفار.

شخارنوت :تصغير للفظ شخريت وتعني العجوز.

السغوت: أشجار طويلة كثيفة الأوراق.

الخرق: ملابس من قطعة واحدة ألوانها نيلية.

المحافيف: حبل من جلد يوضع عادة على الرأس ليمنع تناثر الشعر.

المبرك: مكان تبرك فيه الإبل.